عقيدة الخيام

للاستاذ عبد الحق فاضل

تقديم

من خلال رباعياته الفارسية عرفناه نحن العرب في هذا الجيل ، لكنه كان في حياته من اعلام الثقافة العربية ، لانه كتب مؤلفاته ورسائله العلمية والفلسفية والدينية باللغة العربية، التي كانت لغة العلم والدين والادب في زمانه ، لا في فارس وحدها بل في غيرها من اقطار الامبراطورية الاسلامية . وقد طُبع كتابه الجليل (الجبر والمقابلة) بنصّه العربي وترجمته الفرنسية في باريس عام ١٨٥١ — اي ان اللغة العربية هي المرجع لدراسة هذا الاثر وغيره من ثمار عقل الخيام . ولولا أن شهرته برباعياته الفارسية قد غطت على شهرته العلمية وثقافته العربية، لعرفناه واحدا من رجال الفكر العربي كالفارابي وابن سينا والخوارزمي والزمخشري وغيرهم من اخواننا واخواننا غير العرب، الذين نشأوا في احضان الثقافة العربية والحضارة الاسلامية، والذين هجروا لغاتهم الاصلية في التعلم والتعليم، ودونوا ثمار قرائحهم بالعربية التي احبوها وهاموا بها،

الى حد أن أبا الريحان البيروني، مثلاً، كان يقول أن الهجـــو بالعربية أحب اليه من المدح بغيرها ! .. وما كان هذا شعوره وحده .

لهذا أرى أن الخيام جدير بأن يُحتفي بـــه العـــرب في المناسبات، ويصدروا الاعداد الخاصة به من المجلات ، شأنهم مع أمثاله الآنف ذكرهم .

عقيدتـــــه

كنت في كتابي « ثورة الخيام » عقدت فصلا بعنوان (الالحـــــــاد الرياضي) برهنت فيه على الحاد عمر الخيام ؛ وهنا اعقد فصلا بعنوان (الايمان الرياضي) أبرهن فيه على ايمانه ــ دون أن أمس ذلك الفصـــل الالحادي بتصحيح أو تنقيح ، لأن عمر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين .

فكيف كان ذلك ؟

البيهقي ــ جزاه الله خيرا كثيرا عما روى لنا من اخبار الخيام، ولا سيما أن لمروياته، على قلتها وايجازها ونقصها، خطورتها في البحث ، لقرب عهده من مصادرها ، ولأنه يكاد يكون شاهد عيان في بعض ما يعنينا منهـــا ــ يقول عن صاحبنا عمر « وحكى لي ختنه الامام محمد البغدادي انه كان يتخلل بخلال من ذهب (١) ، وكان يتأمل الالهيـــات من (الشفاء) ، فلمـــا وصل الى فصل (الواحد والكثير) وضع الخلال بين الورقتين وقال : ادع الأزكياء حتى أوصي . فوصى ، فقام وصلى . ولم يأكل ولم يشرب ، فلما صلى العشاء الأخيرة سجد ؛ وكان يقول في سجوده : اللهم انك تعلـــم

---

١ ــ التخلل : تنظيف ما بين الاسنان من بقايا الطعام . والخلال (زنة الهلال) : ما يتخلل به من عود أو نحوه .

اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر لي ، فان معرفتي اياك وسيلتـــي اليك . ومات » . اه* البيهقي (٢) .

قال لي الخيامي التركي المرحوم رضا توفيق (حين لقيته في استانبول عام ١٩٤٧) انه لا يصدق الحكاية ، لان الخيام كان فقيرا ،وليس معقولا ان يتخلل بخلال من ذهب . غير اني لا اتفق معه في هذا ؛ اولا لأني لا ارى من الضروري تكذيب الحكاية كلها اذا كان جزء منها غير معقول ، وثانيـا لان الاستنتاج بمثل هذا التعميم لا يبيح لنا انكار نصٍّ ينقله راوٍ عرف شخص الخيام (مذ قابله سنة ٥٠٧ هـ ــ اي قبل وفاة الخيام بعشر سنوات) فلم ينكر من رواية ختنه عنه انه كان يتخلل بخلال من ذهب . وقد كان هـو اخلق بالشك في صحة ذلك لو قد وجد ما يثير شكا ، وخاصة انه يروي الحكاية نقلا عن شاهد عيان يعرفه ايضا ويثق بروايته ، بدليل انه نقلهـا دون أن يعلّق عليها ، او يناقش راويتها ختن الخيام الذي يظهـر انه كان مساكنا له في دار واحدة . وليس ثمة ما يحمل اي واحد من الاثنـين ــ الراوي والمروي عنه ــ على أن يخترع (خلال الذهب) خلافا للواقـع . وليس مستبعدا أن يكون الخيام اغتنى في بعض مراحل عمره،وهو الـذي كان يخالط الأمراء والسلاطين . وقد جاء في بعض اخباره أن الوزير نظـام الملك كان اجرى عليه (١٢٠٠) دينار في السنة ، وربما اجرى عليه وزير آخر او سلطان ، ما اغناه ولو في اخريات حياته فقط . كما ان الخيام كـان طبيبا عالي الدرجة،يستدعيه الملك لمعالجة حفيده سنجر حين اصيـب

---

* ــ ظهير الدين أبو الحسن علي بن زيد البيهقي ، يرجع نسبه الى الصحابي خزيمة الاوسي الملقب بذي الشهادتين ، نزل أبناؤه فارس ــ « تتمة صوان الحكمة » تم تاليفه ما بين عامي ٥٥٣ و ٥٦٥ هـ . ويلاحظ أن لقب الخلق (البغدادي) ينبيء أن زوجة الخيام كانت عراقية النسب .

بالجدري في صباه (٣) ، والطب صنعة رائجة رابحة ، وما احسب بضاعة الخيام هذه كانت بائرة . حتى لو كان فقيرا حقا آيامئذ فليس من المحال ان يكون احد المعجبين او الاصدقاء قد اهدى اليهذلك الخلال الذهب . وليس ببعيد كذلك ان يكون تفسير هذه النقطة اي شيء لا يخطر لنا ببال . فعلى هذا لا استسيغ تكذيب نص لمجرد وجود نقطة فيه لا نعرف كيف نفسرها . وما اكثر الالغاز المستعصية ، وبعضها شديد الغرابة لا نفقه له معنى ، في حيوات رجال التاريخ .

على ان حكايتنا هذه تقول بنفسها ان الخيام كان عند وفاته ميسور الحال ، لانه حين شعر بدنو ساعة الصفر المحتومة ، دعا بالازكياء ليوثقوا وصيته ، فحضروا ووصى فعلا . فلو لم يكن ذا مال ذي بال لما كان ثمة ما يستدعي الوصية ، وتوثيقها من جانب الازكياء ، وهم بمثابة الكتاب العدول في زماننا .

لكني انا لم اسلم من مثل هذا الخطأ الذي وقع فيه المرحوم رضا توفيق ؛ فقد صدرت الطبعة الاولى والثانية من « ثورة الخيام » وانا غير عابىء بالحكاية .. اصدق كل ما رواه البيهقي عن الخيام ما عداها ، فكنت اتخطاها كلما وقع نظري عليها . وكان السبب انها صادرة عن ختن الخيام — اي اخي زوجته او ابيها — فقلت لنفسي، اذا كان معاصرنا المرحوم فروغي (٤) يدافع عن صحة ايمان الخيام، المتهم بالالحاد، ذلك الدفاع

---

٣ — هو ابو الحارث سنجر بن محمد بن ملكشاه السلجوقي ، تولى الملك ولقب بالسلطان الاعظم .

٤ — محمد علي فروغي ذكاء الملك ، كان احد جهابذة السياسة والعلم والادب في ايران ، توفي اثناء الحرب العالمية الثانية . اصدر مجموعة لرباعيات الخيام باسم « رباعيات حكيم خيام نيشابوري » وقدم لها ببحث قيّم على ايجازه وعلى مخالفتنا لبعض آرائه فيه. طبعت في طهران سنة ١٢٢١ شمسية ، اي ١٩٤٢ م .

الحار ، غير المنطقي ، ويتأول حتى الرباعيات الالحادية الواضحة الكفران، بالرغم من أكثر من ثماني مئات من السنين تفصل بين المحامي والمتهم ، وبالرغم من عدم وجود اية رابطة شخصية بينهما من صداقة او مخالتة ــ فما بالي بالامام محمد البغدادي،ختن الخيام ؟ كيف اصدق حكايته ضد رواية القفطي الذي قال لنا بكل جلاء عن الخيام إن اهل زمانه قدحوا في دينه .. حتى لخشي على دمه وامسك من عنان لسانه وقلمه ؟ .. وضد اتهـــام الرازي اياه بانه من الدهريين والطبيعيين الضالين،بالرغم من اكبـــاره لـــه ؟ (٥)

يضاف الى ذلك أن الرواية نفسها لا تخلو مما يثير الشك أو التساؤل على الاقل . فان ما يقال في السجود اثناء الصلاة هو « سبحان ربي الاعلى» .. فلماذا قال الخيام في سجوده غير ذلك ؟ كما ان ما يقال في السجود انما يقال سرًّا،اي همسا لا جهرا ، فكيف سمعه الختن ؟ وان شئت مشككا آخر علاوة على هذا،فكيف علم أن الخيام وقف في القراءة عند (فصل الواحد والكثير) من كتاب (الشفاء) وهو من اشهر كتب ابن سينا ؟

من أجل هذا اهملت هذه الحكاية من رواية البيهقي التي صدقتها كلها، لاني لم أجد فيها ــ عدا هذه الحكاية ــ ما يدعو الى شك او تكذيب . وكان ذلك تسرّعًا مني .

بعد الطبعة الثانية من « ثورة الخيام » عدت الى القصة انظرها بعين جديدة ، ازالت قبل كل شيء ذلك التناقض بين روايتي القفطي والرازي وغيرهما عن الحاد الخيام،وبين رواية ختنه عن ايمانه ؛ فظهر لي أن عمـــر الخيام نفسه قد كان كلا الرجلين ؛ ذلك أن الالحاد والايمان لم يلتقيا في فترة واحدة من حياته . فنحن وان كنا على جهل تام بمرحلة الحادِه،فاننا نعلم ان

---

* ــ ورد تفصيل ذلك في « ثورة الخيام » .

ايمانه كان في شيخوخته،وقد اطلعنا عليه في آخر يوم من حياته بالتحديد . وما اكثر مَن أَلحَد من العلماء والمفكرين في عهد الشباب أو الكهولة ثم فاء الى الايمان في الشيخوخة .

وعلى ضو هذه الظاهرة نعود الى النقاط الغامضة التي اثـــارت شكوكنا لنمتحنها ونحقق النظر فيها . فأما كيف عرف الامام محمد البغدادي ان صهره الخيام وقف من (الشفاء) عند (فصل الواحد والكثير) فهـذه ابسط المشاكل واسهلها جوابا . عندما فتح الكتاب — ربما بعد أن اسلـم الخيام الروح — حيث كان قد وضع الخلال بين الورقتين — وجد هـــذا العنوان في احدى الصفحتين .

واما ما قاله الخيام في سجوده،فالظاهر انه كان خارج صلاة العشاء الاخيرة — الاصولية — التي يقال في سجودها « سبحان ربي الاعلى » . واكبر ظني ان البيهقي لم يحسن اختيار اللفظ للتعبير عن هذه النقطة ، ولو ان عبارته تحتمل تفسيرنا هذا . فهو يقول : « فلما صلى العشاء الاخيرة سجد .. » اي : فلما فرغ من صلاة العشاء الاخيرة سجد . ولا معنـــى لعبارته بغير هذا التفسير،لان السجدات في اثناء الصلاة بديهية لا حاجـة الى ذكرها . ولو كان قصده السجود الذي في اثنائها لقال : « فلما صلى العشاء الاخيرة وسجد كان يقول في سجوده .. » او : « فلما سجد في صلاة العشاء الاخيرة .. » .. أما خارج الصلاة فما اكثر ما يسجد المسلم لله شكرا او تضرعا ، او تحية للمسجد ، او استقبالا للاجل .

فلما احس الخيام بدنو ساعته وصّى ، وكان متهيئا نفسيا للقـــاء الرفيق الاعلى،فسجد بعد صلاة العشاء تضرعا وانابة . وفي مثل هـــذه الحالة من المعقول أن يكون قد جهر بما قاله،ورفع به صوته من فرط التأثر وحرارة الابتهال . كما يحتمل ان يكون كرر الدعاء بعد السجود فسمعه

ختنه . وأية كانت الحالة فقد وردت أحاديث نبوية عن اجلّة من الصحابة أن الرسول كان يدعو أحيانا في سجوده ويقول كذا وكذا ، من مختلف الأدعية(٦)ويظهر أن البيهقي قد دوّن نص دعاء الخيام حين سمعه من الختن ليثبته في كتابه ، كما يفعل أمثاله ممن يؤلفون عن المشهورين أو يجمعون الاقوال والنصوص .

أما الاحساس بدنوّ الأجل فظاهرة كثير حدوثها ؛ ولعل القارىء قد صادف من معارفه أو اقاربه ــ كما صادفت أنا ــ مَن احسّوا بقرب تسليم الروح،ولو لم تعتورهم أثناء المرض نوبة او انتكاسة فجائية منذرة ، سوى الهاجس الداخلي .

من الملحوظ أن بعض الرواة ــ ومنهم رواة الخيام ــ ميالون الى الاختزال أحيانا،فيحذفون كلمات أو عبارات يظنونها زائدة أو غير ذات جدوى ، غير مقدرين ما لها عند الباحث المحلل المدقق من خطورة ؛ وهي قد تغير المعنى أو تقلبه ، أو تضعف الرواية على الأقل . من ذلك مثلا رواية الشهرزوري لهذه الحكاية نفسها : فبدلا من أن يقول « روى البيهقي أن ختن الخيام الامام محمد البغدادي حكى له كذا وكذا .. » ــ قال الشهرزوري عن الخيام : « وحكي (بصيغة المجهول) أنه كان يتخلل بخلال من ذهب،وكان يتأمل الالهيات من الشفاء .. » (٧) .. فليتصور القارىء كم كانت تهبط قيمة الحكاية لو لم تصل الينا رواية البيهقي الأصلية،التي منها علمنا أن الراوي ناقل مباشر ، ثقة ، عن شاهد عيان . شيء من هذا

---

٦ ــ ابن تيمية : « الكلم الطيب » ــ تحقيق محمد ناصر الدين الالباني ــ فيه أمثلة من أدعية السجود النبوية ، ص ٦٠و٦١.

٧ ــ شمس الدين محمد بن محمود الشهرزوري ــ « نزهة الارواح وروضة الافراح » ــ تأليف ٥٨٦ ــ ٦١١ هـ .

القبيل اقوله عن البيهقي نفسه ، فلا بد أن ختن الخيام قد روى له أمـورا اكثر اقناعا واوفى تفاصيل مما اختصره لنا في نصه هذا الذي لم يجد هو فيه ما يثير تساؤلا أو يتطلب اقناعا او ايضاحا ــ لأن الحكاية كما سمعها كانت مقنعة واضحة . ولعله كان شخصيا يعلم عن تدين الخيام وتقواه ما لـم يذكره لنا اكتفاء بزواية الامام محمد البغدادي .

ما سبب الحاد الخيام ؟

انه السبب الرائج للالحاد بخطوطه العريضة في كل مكان ، ولا سيما لدى العلماء والمفكرين .

لماذا كل هذا الجور في الحياة ؟

لماذا يسعد الاشرار ويثرون ، بينما يشقى الأحرار ويفتقرون ؟

لماذا يخلق الانسان لينمو ، ثم يموت بعد أن يتم ويكتمل ويصبح أجدر بالحياة ؟

لماذا تموت الصبيّة كالوردة في ميعة عمرها قبل ان يأتي دورها ؟

لماذا كل هذا الاضطراب والظلم ، واللامعقول ، في العالم ؟

لماذا .. لماذا .. لماذا ... (وقد ادرجنا نماذج أخرى من تساؤلاته و (لماذاته) في فصل (الالحاد الرياضي) في « ثورة الخيام ») ..

فالذي يستطيع أن يستنتجه بعضهم من كل هذا انه لو كان للكون اله لما كان جائرا ، وان كان جائرا فلا يمكن ان يكون الها .

ولا بد أن الخيام كان عارفا بالقالة السفسطائية الاغريقية المشهورة: إما أن الله لا يريد الشر ولا يستطيع أن يمنعه ، واما انه يستطيع ولا يريد ، واما انه يريد ولا يستطيع .. وكل اولئك يعني انه ليس الها . والرابعة

انه لا يريد الشر ويستطيع ان يمنعه ، وهذا أيضا مستحيل ، لانه يقـــال عندئذ : ماله لا يفعل اذن ؟

يضاف الى ما تقدم من أفكار تقود الى الجحود والكفران بذات الله ، ان الالحاد ضرب من التمرد الذي يتسم به عهد الفتوة التي من طبعها التحدي والنزوع الى التجديد، والخروج على الموروث من معتقدات ومواضعات دينية واجتماعية وذوقية .. حتى في الأزياء .. حتى في الموسيقا والأغاني .. وقد رأينا بأعيننا انتشار بدعة اطالة اللحية على عهدنا عند أحداث الجيل ، خلافا لجيل آبائهم ، ثم اطالة شعر الرأس محاكاة للاناث . ولا تسل عن تملص الفن عموما — من رسم عبثي وأدب تشكيلي — من كل القيود، وخاصة من القيد الجوهري الأساسي الذي انما خلق الفن والأدب للتعبير عنه ، وهـو المعنى . وما كل هذا غير طراز من الالحاد الاجتماعي .

بديهي ان فكرة وجود خالق للكون مبدع لكل شيء لم ينتظر الخيـــام حتى يشيخ ليتعلمها، فهي في الواقع أول شيء من الاسلام تَعلَّمه الصبي ، عمر ، في دروس علم الكلام (الالهيات) يوم قالوا له : كل متغير حادث ، وكل حادث له محدث . والعالم متغير، فهو اذن حادث، فلا بد أن يكون لـــه محدث، اي صانع أو خالق هو الله سبحانه . فكان يحفظ ذلك صبيا، ويتفهمه ويعيده على ممتحنيه مثلما يحفظ (قفا نبك) ويتفهمها ويعيدها. غير أنـــه حين شب ونما جسمه واضطرمت فتوته في مرحلة التمرد والتحدي، بدأ يقول (لماذا) ؟ ولا بد انه كان يسمع أقاويل الملحدين المنكرين أيضا ، فكان يقارن ويوازن . وحين لابس الحياة واحتك بتفاعلاتها، لَعَلَّه عانى واقعيا فوضـــى الأمور واختلال معايير العدالة، بل فقدانها في الكثير من الأحوال ؛ وربما اصابه الكثير من عقابيل ذلك ، ولعله قاسى أيضا من تحيز القدر في معاملة الناس شيئا غير قليل — علاوة على لا منطقية الموت ومجهولية المبتـــدأ

والمنتهى ، لا بد انه حين واجه كل أولئك صار رنين (لماذا) يدوي بقوة في رأسه ـ استفهاميا حينا ، واحتجاجيًا حينا ، واستنكاريا حينا آخر .

ولا بد كذلك أن الخيام قد درس منذ الصبا ايضا اجوبة الدين على اسئلته واعتراضاته ، فقيل له ان (الآخرة) تصحح اغلاط الدنيا . فـ « من يعمل مثقال ذرة خيرا يره ، ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره » ؛ فكما يثاب الأخيار على صالح اعمالهم وعلى ما يبتلون به من مصائب الحياة ، يعاقب الاشرار على شرورهم، ويحصى ما يتمتعون به في الدنيا من نعم الحياة فيحسب على سيئاتهم .. والظالم يؤخذ من حسناته يوم القيامة لتضاف الى حسنات المظلوم، فان لم تكن له حسنات أضيف الى سيئاته من سيئات المظلوم .. « يقضى بينهم بالحق ، وهم لا يظلمون » .

لكن هذا الذي تعلمه في الصغر تبخّر تأثيره والاقتناع به مع الزمن في دورة الشباب . كل الملحدين يعرفون موقف الدين هذا ، لكنهم يزيغون عنه ويذهب بهم الفكر و (اللماذات) مذهب الحيرة فالنكران .

على أن تقدم السن يخفف من فورة التمرد والتحدي ايضا . وكثيرا ما يؤمن الشيوخ بعد كفران . والتأويل الرائج لهذه الظاهرة هو ان المرء حين يستنفذ عمره، وتخبو حدة شهواته، ويقترب منه قبره، يستغفر ربه خوفا من ويلات الآخرة وطمعا في نعيمها، فيتوب عن معاصيه ، وكثيرا ما يعكف على العبادة واداء الفرائض من حج وصوم وصلاة وزكاة ؛ ومنهم من يتصدق بما حشد من مال حرام ، وبعضهم يبني المساجد ، او يوقف املاكه على وجوه البر .

لكني لا اخال هذا منطبقا على مثل شيخنا الخيام ، بل على مثل ابي نواس الذي كان يقول في شبابه :

قم سيدي نعص جبار السماوات

فهو كان يؤمن بأن في السماوات جباراً،لكنه يعصيه تمردا وسفاهة حتى بعد ان حج البيت وقال في بعض قريضه ما ينم عن ايمانه . وذلك شأن معظم العصاة من الناس . يؤمنون بالله القاهر فوق عباده،ولا يمنعهم ايمانهم من اتيان المعاصي،من غش وابتزاز وعدوان وفسوق،وما الى ذلك من صغائر الذنوب وكبائرها . . كالولد الشقي المتمرد،يرتكب كل ما تسول له نفسه ضد أوامر أبيه ومعلميه على الرغم من علمه ــ يقينا ــ بما سينال من عقاب وضرب وجيع .

فاذا ادبر الشباب وحلّ المشيب ببعض المارقين عن الدين تابوا .

قال ابو نواس فيما قال :

وبلغت ما بلغ امرؤ بشبابه فاذا عصارة كل ذاك اثام !

يتوب من آثامه لا من الحاده . انه لم يخرج على الدين عن فلسفة ، ولا هو تاب عن تفكير . لأن التوبة خامرته فيما يظهر عند اعتلال جسده، ربما بسبب الاسراف على نفسه في الخمر والفجور . ويغلب على ظني انه لو عاوده عنفوان الشباب واقبال الحياة لتاب عن توبته .

الخيام طراز آخر ، كان كفره بالدين والحاده بالله عقليا ، اي علميا، لا جهليا او عصيانيا ؛ فلما عاد الى الايمان عاد عن تفكير وتأمل . فلهذا لم يستغفر في دعائه الاخير عن ذنوبه ومعاصيه ، بل عن عدم تمكنه من معرفة الله .

بعد ان شبع وسئم في مدارج العمر من كثرة تساؤل وطول احتجاج واعتراض ، اخذت (لماذا) تضعف وتتلاشى مع الزمن وبالتدريج . . لتظهر مقابلها في نفس الوقت ، مع الزمن وبالتدريج : (كيف) ؟ . . ولا سيما ان شعلة التمرد والتحدي خمدت مع تدرج خمود الفتوة ونضج الكهولة ،

فأصبحت نظرته الى الأمور وتأملاته في شؤون العالم تتسم بشيء من الحياد .. الايجابي .

اذا كانت تأملات أبي نواس قد قادته الى القول :

وفي كل شيء له آيـــة تدل على انه واحدُ

فلا بد أن هذه الحقيقة قد كانت أجلى لعين الخيام، وهو أوسع علمـــا وأعمق فكرا ، وأكثر اهتماما بتقصي الحقائق والتفتيش عن المجهـــــولات واسرار الحياة والكون . لا بد انه تساءل :

(كيف) نبتت هذه الشجرة الوارفة من تلك البذرة الصغيرة ؟ كـــل أوراق هذه الدوحة الضخمة وخضرتها وخشبها والوان نورها ونوع ثمرتها وطعمها .. كل هذا كان مسجلا بطريقة خفية ودقة غير معقولة في تلـــــك البذرة الصغيرة .

(كيف) تكونت هذه الحيوانات في أرحام أمهاتها ، من لا شيء تقريبا، من ماء دافق لا يبين فيه اثر لحياة .. ثم أخذ كل منها منذ ولادته يتصرف على نحو خاص بأبناء نوعه دون تعليم ، بالفطرة ؟

(كيف) تكونت هذه الفطرة ؟

والانسان .. (كيف) سطرت كل خصائص شخصيته بالتفصيـــل المسهب ، المتقن ، في تلك النطفة الضئيلة ؟ كل البرنامج : الطول والحجم ولون البشرة وعدد الشعرات في الجسم في كل مرحلة من مراحل الحياة .. والاحاسيس ، والمشاعر ، والهواجس ، والأفكار ؛ وكيف يواجه جسمه ونفسه وعقله كل أنواع الاحتمالات الـ تصادفه في الحيـــــاة ، وكـــــل الاستجابات والتفاعلات وتعاملات البيئة ؟ .. والخيام طبيب ..

وهذا الكون (كيف) تهندس بنجومه الثابتة على مسافات محددة ..

ـ والخيام فلكي ـ وبكواكبه السيارة المتحركة بحسابات مضبوطة ؟ ..
ـ والخيام رياضي ـ هذا الكون (خيف) نشأ و (كيف) يعمل ؟ (ولو أنه لم يكن معروفا يومئذ أن الفلك يتحرك كله ويسير) .

وهذه الفصول السنوية (كيف) تتغير وتتعاقب بانتظام، فلا يتقدم دوران السنة دقيقة واحدة ولا يتأخر ؟ .. والخيام قد شارك في وضع التقويم السنوي الذي يبدأ في لحظة تعادل الليل والنهار الربيعي .. وهو فوق ذلك خبير بعلم الأجواء والأنواء ..

بعض هذه الاسئلة يظهر في رباعياته ، لكني لا اشك انها كلها ـ واكثر منها ـ قد كانت موضوع اهتمامه وتأملاته .

كيف وكيف وكيف ؟ ...
كل شيء يدعو الى العجب ، بل الدهشة .
وكلما كان العقل أكبر كان تعجبه ودهشته أكبر .

هذا الكون المذهل بكل هذه العظمة وهذه الدقة، من أعظم شيء الى اصغر ذرة فيه لا يمكن ان يكون قد تكوّن مصادفة . وهذه الدقة المتناهية المحكمة الى حد لا يدركه الفكر، يستحيل أن تكون هي التي خلقت نفسها .

قال لي في اذن قلبي الفلك الدوار همسا :
لأرحت الآن نفسي من هيامي ودواري !
انا لو كان بأمري دوراني في مداري
أتظن الحكم حكمي في الورى سعدا ونحسا ؟

كلا ، ان الفلك لم يبدع نفسه ، ولا هو يدور باختياره ، ولا بوعي منه ؛ انه كالثور يدور في الناعورة لا يدري من أجل ماذا .

لسنا نعلم في أية مرحلة من حياته قال هذه الرباعية ، وهي رباعية

خيامية الدلالة،حتى ان لم يكن الخيام قائلها فعلا .

(كيف) اذن نشأ الفلك ، و (كيف) دار ؟

انه بحـــر وجود جـــاء من طـــي الخفـــاءْ
درة للبحـــث لم تُثْقَب بعلـــم او ذكـــــاءْ
كلهـــم جـــاء بقـــول من تَظَنٍّ وهـــــراءْ
غير ان الحـــق لم يظهـــر عليـــه ابن فنـــاءْ

(لا ادرية) صريحة ؟ وهي من الرباعيات (المعتمدة) التي يرجح ترجيحا قويا صحة نسبتها الى الخيام . وثمة امثال لهذه اللاادريـــــة في رباعيات اخريات . ثم :

يا فتى من صولج التقديـــر كالأُكرة يجـــــري(٨)
بِرٌّ شمالا ويمينـــا ، ثم لا تنطق بأمـــــرِ
ان من القاك في المحنـــة من كَـــرٍّ وفـــــرِ
هو يدري،وهو يدري،وهو يدري،وهويدري

(لا ادرية) اخرى ، لكن من نوع آخر . فالخيام نفسه ما يزال (لا يدري) غير انه قد توصل هنا الى معرفة (هو) الذي وحده يدري .. اي انه اعترف بوجود (هو) الذي « القاك في المحنة » ..

كان إلحادُه رياضيا ، فلا بد أن ايمانه ايضا قد كان رياضيا .. فلا يُفَلُّ الحديد الا الحديد .

فاذا وضعنا المسألة في صيغتها الرياضية كانت كما اظن هكذا :

---

٨ ــ الصولج هو الصولجان (اللسان) . يقصد لعبة الكرة والصولجان ، المشهورة فـــي عصرنا باسم (الهوكي) .

(لماذا) ، جوابها : لا ادري ، أيّ صفر . جواب سالب .

(كيف) ، جوابها : هو يدري . جواب موجب ، على كل حال .

وطبيعي أن يتخلى عقل علمي كعقل الخيام عن السالب من اجـــل الموجب ! بعد أن اقتنع عقله باستحالة وجود هذا الكون من دون موجد ، خالق ، صار اذا عاوده التساؤل : لماذا هذه المفارقات في الحياة ؟ لمـــاذا الشرور ؟ لماذا الحياة ؟ .. لماذا الموت ؟ .. لماذا ، لماذا ؟ ..

كان الجواب : هو يدري ! .. نفس الجواب الذي تعلّمه الصبي عمر ابن ابرهيم الخيام من معلميه واهله : انها حكمة الله .. قضاء الله .. ارادة الله .. يُعِزّ من يشاء ويُذِلّ من يشاء ..

ولماذا كانت حكمة الله ومشيئته هكذا ؟ .. هو يدري ، هو يدري .. « لا يُسأل عما يفعل ، وهم يُسألون » .

عندها لا بد أن الخيام عاد الى أجوبة الدين القائمة على تعادلية اليوم الآخر . وصار يتأمل تلك الاجوبة على (لماذاته) بعين جديدة، ويهضمها عقله بالتدريج — بعد ان كان يحفظها ويعيدها ويتبحر في فلسفتها تحليلا وتعليلا في محاضراته ورسائله . كان يلقيها دروسا على الناس، ويجهد في افهامهم اياها بالادلة المتداولة بين العلماء والحكماء دون أن يقتنع هـــو بها أو يفهمها .. كما يفعل الكثيرون من المعلمين في كل زمان حين يضطرون الى تلقين تلاميذهم مبادىء دينية أو سياسية لا يؤمنون بها . لكن الخيام بعد أن آمن بالذي (يدري) صار يلقيها دروسا على نفسه ويجهد في افهامها اياها بالادلة التي تقنعه هو، واصبح شعوره بضرورة وجود (الواجـــب الوجود) يساعده ويجبر عقله على الاقتناع .

وما في الامر غرابة ؛ فالغزالي الفقيه المتصوف الكبير أيضا ثاب الى

الايمان بعد طول حيرة وتشكك . وللغزالي والخيام نظراء .

سؤال : (كيف) هو الله ؟ ..

اما هذا فلم يجب عليه العقل ولا الدين : الدين يقول : شـــيء لا كالاشياء .. بكل شيء محيط .. يدرك الابصار ولا تدركه الابصار .. والامام علي يقول : « كل ما خطر ببالك فهو ليس كذلك » !

والواقع ان كل تفكير في حقيقة الله وصفاته لا نتيجة له غير الحـيرة والضلالة : وهنا ياتي الحديث النبوي المنقذ : « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله ، فتهلكوا » (٩) .

وينتهي التأمل الرياضي بالخيام ذي العقل الرياضي الكبير الى هـذه النتيجة :

ان عقلي ليس بالكفء لاثباتـك ، ربـي
فمناجاتك اضحـت هـي تفكـيري ودأبي
كيف لي ربـاه ان اعرف ما كنه صفاتـكْ ؟
ليس مـن يعـرف ما ذاتك حقا غير ذاتكْ !

وما اشد انسجام رباعيته المنظومة هذه مع دعائه المنثور ذاك .

وان كانت للخيام عمر رباعيات دينية اخرى، فالمعقول ان تكون مـن نتاج فترة الرجوع الى الايمان والتدين . ولعل رباعيتنا هذه اهم واحـدة

---

٩ ــ لقد كرر الرسول ذلك على اصحابه في مناسبات متعددة فيما يظهر، لان الحديث روي مـن جهات مختلفة بصيغ متقاربة ، كلها يؤكد النهي عن التفكير في ذات الله ويحث على التفكير في مخلوقاته .

فيها .

ولا نعلم متى قالها عمر ، لكن الشهرزوري يروي أنها آخر ما قال من الشعر .

وأما الرباعية الرائجة التي كثيرا ما يستشهدون بها على ايمان الخيام :

ان كنت لم اثقب درة طاعتك قط ،
ولم انفض غبار الذنب عن وجهي قط ،
فلست باليائس من رواق كرمك ،
لاني لم اقل ان الواحد اثنان قط . .

فما احسبها من صناعة عقل الخيام ، لضعفها ، وخاصة لتهافت الاستعارة البلاغية في الشطر الأول منها — فمن اسلوب الخيام أن يقول احيانا (ثقبوا د. المعاني) بمعنى افتضوها ونفذوا الى صميمها ، أما (ثقب درة الطاعة) بمعنى الانصياع اليها والتمسك بها فاستعارة سقيمة لا أراها شبيهة بشاعرنا المنطيق عمر .

لا استبعد أن يكون ايمانه هذا الذي ملك عليه مشاعره في شيخوخته، او منذ كهولته ، قد دعاه الى اتلاف رباعياته الفارسية وشعره العربي، مما لم يرد به وجه الله او أراد به الالحاد والثورة على الدين ، كما يفعل امثال له من التائبين — فلم يخلّف منجراء ذلك ديوان شعر ولا مجموعة رباعيات ، الا ما بقي في ذاكرات اصحابه الذين كانوا اخذوها عنه او في دفاترهم ، او اخذها بعضهم عن بعض ، مما شاع شيء في حياته نقلا عنهم،وصارت شذرات منه تظهر بعد وفاته في المؤلفات اللاحقة ، حينا بعد حين .

ولنعد الآن الى ذلك الدعاء الذي ودع به الفانية . صيغته لا تخلـو من غرابة ، وهي تناسب الخيام كما نعرفه كل المناسبة . ونص الدعاء كالذي راينا هو : « اللهم انك تعلم اني عرفتك على مبلغ امكاني ، فاغفر لي . فان معرفتي اياك وسيلتي اليك » .

فاذا كانت معرفته البارىء هي وسيلته اليه فلماذا يستغفره ؟ السر فيما ارى ان « المعرفة » في الشق الاول من هذا الدعاء تختلف عن «المعرفة» في الشق الثاني منه . وبعبارة اوضح،يخيل لي انه قصد بالمعرفة الأولى عكس معناها،اي الانكار ! .. فكأنه قال « اغفر لي عدم معرفتي اياك فيما خلا من أعوام عمري » . وهو يتنصل ضمنا من التبعة،ويلقيها على عجزه عن الادراك . وقوله « على مبلغ امكاني » يؤيد هذا التفسير . ثم جاءت المعرفة الحق في الشق الثاني من قالته ، وهي التي يتخذها وسيلته الـى الله لغفران الماضي وثواب الحاضر ، بل المستقبل .

كان الحاده عقليا ، وجاء ايمانه عقليا ولا بد .

عبد الحق فاضـــل

●✱✱●